النزعة العدمية عند نيتشه: حقيقتها، أسسها ومخاطرها على الإنسان المعاصر

Nietzsche' Nihilism: its truth, foundations and dangers to contemporary man

قـايد سليمة

المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة (الجزائر). salima.gaid@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/29 تاريخ القبول: 2022/03/22 تاريخ النشر: 2022/07/31

ملخص:

نيتشه فيلسوف العدمية بامتياز، وقد ميّز بين نوعين من العدمية هما: العدمية السلبية أو الناقصة، والعدمية الإيجابية أو الكاملة. الأولى هي عدمية الحضارة الأوروبية في عصره، والسبب في ذلك أنها تقوم على قيم انحطاط، لذلك يجب تهديمها، لكي تخلفها العدمية الثانية، وهي العدمية التي جاء بها نيتشه، واعتبرها علاجا للأولى. وسنسعى في هذه المداخلة المتواضعة لشرح أزمة العدمية في الحضارة الأوروبية من منظور نيتشه، من خلال التعريف بها وعرض أنواعها وشرح أسسها، ثم تقييمها ببيان كل مخاطرها على الإنسان، باعتبار أنها أكبر أزمة عرفها الإنسان الأوروبي المعاصر حسب نيتشه.

الكلمات المفتاحية: العدمية، الانحطاط، أزمة الإنسان، النفي، انهيار القيم.

Abstract:

Nietzsche is considered as the philosopher of Nihilism by excellence. He distinguished between two types of Nihilism: passive or incomplete Nihilism, and positive or complete Nihilism. The first type is the Nihilism of European civilization in his time, based on the values of decadence ; therefore, had to be destroyed to be succeeded by the second type of Nihilism. The latter is the Nihilism brought by Nietzsche to remedy the first type. In this paper, we attempt to explain the crisis of Nihilism in European civilization from Nietzsche's point of view, by defining it, presenting its types and explaining its foundations evaluating it by identifying its risks on humans, considering that it is the biggest crisis contemporary European man has known.

Keywords: nihilism, decadence, human crisis, negation, the collapse of values.

1. مقدمة:

في الوقت الذي كان الكثير من الفلاسفة -كهيغل مثلا- يتغنون بالحضارة الأوروبية ودرجة تطورها، في مختلف المجالات كالعلوم والفلسفة والسياسة والفنون والآداب...، نجد عددا قليلا من الفلاسفة، انتبهوا إلى مساوئ وعيوب هذه الحضارة، ومن بينهم هوسرل وشبنجلر وبرغسون، ولكن نيتشه بوجه خاص*. فقد اعتبر هؤلاء الفلاسفة أن الحضارة الأوروبية تعيش مرحلة أزمة حادة، تصورها كل واحد منهم على طريقته، فسماها هوسرل مثلا أزمة العلوم الأوروبية، ينما شخصها نيتشه في أنها أزمة العدمية. وهو لفظ يختصر كل عيوب وتناقضات الحضارة الأوروبية، خاصة في الفترة المعاصرة، كما أنه يدل على مدى عمق وخطورة هذه الأزمة، ويكرس نيتشه فلسفته لتحليل أزمة العدمية ومحاولة إيجاد السبل الكفيلة بتجاوزها. وسنسعى من جهتنا في هذا البحث المتواضع لدراسة أزمة العدمية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر من منظور نيتشه، من خلال طرح الإشكال التالي: **ما هو مفهوم العدمية عند نيتشه؟ وما هي أهم الأسس التي تقوم عليها؟ وما خطرها على الإنسان؟ وكيف يمكننا علاجها؟**

2. تعريف العدمية:

لم يكن نيتشه المخترع الأول لمصطلح العدمية (Nihilisme)، بل وجده قبله عند بعض المفكرين السياسيين، وهم الفوضويين الروس، ومن بينهم جاكوبي (1743- 1819) (Friedrich Heinrich Jacobi) وعند بعض الأدباء مثل بورجيه (1852- 1935) (Charles Joseph Paul Bourget) الذي يبدو أن نيتشه قد أخذ المصطلح منه. "إن مفردة العدمية التي نجدها سابقا عند جاكوبي، وجان بول تورغنيف والفوضويين الروس، التي استعارها نيتشه نفسه من بول بورجيه، تستخدم للدلالة، عند نيتشه على ماهية الأزمة المميتة التي ضربت العالم الحديث: سقوط القيم العامة التي أغرقت الإنسانية في غم العبث وذلك بأن فرض عليها اليقين المتشائم الذي لا قيمة لشيء معه". (غرنييه، 2008، صفحة 33) ومع ذلك فإن نيتشه سينتحل مصطلح العدمية ليصبح بالتقريب مرتبطا باسمه، وذلك لأنه منحه معنى خاصا جدا، وهو المعنى الذي سيستعيده معظم فلاسفة القرن العشرين، فينتشر ويذيع بسرعة في الفلسفة المعاصرة.

* ارجع إلى حسن حنفي. **في الفكر الغربي المعاصر**(1990)، الإسكندرية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص247.

يمكننا أن نعرف العدمية باختصار بقولنا إنها تعني النفي والسلب، فهي الحركة الفلسفية التي تقوم بنفي شيء ما، مثل موجود ما أو حقيقة ما أو قيمة ما... المهم أن فعلها الأساسي هو النفي، وهو نفي كامل ومطلق، بحيث تسقط في العدم (Le Néant)، ومن هنا جاءت تسمية العدمية، أي نفي أو إعدام كل شيء، بحيث لا يبق إلا العدم وحده. لذلك يجب علينا "فهم اللفظ «كتعديم (nihilisation)»، «نفي(négation)»، رفض قيمة ما، مؤسسة ما، شيء ما في كل المجالات التي تُمارس فيها العدمية. ويجب أن تُفهم العدمية وببساطة على أنها نفي، ورفض للقيم القائمة". (Daigle, 2000, p. 60) لهذا فإن ما يميز العدمية هو أنها حركة فلسفية ناقدة بشراسة وهدامة بشكل جذري.

يوافق نيتشه باقي الفلاسفة على المعنى العام للعدمية، باعتبارها في الأساس نفيا للقيم السائدة، لكنه سيحلل هذه العدمية بعمق شديد، ويوطد أسسها بشدة، ويدخلها في صميم مشروعه الفلسفي الخاص، بحيث يستخرج لنا مفهوما جديدا وخاصا جدا عن العدمية، بوصفها نفيا للحياة، "والعدمية وفقا لهذه الرؤية تعني إرادة نفي وإعدام للحياة". (المرهج، 2009، صفحة 227) وسيكون لهذا المعنى أثر بالغ في تاريخ الفلسفة المعاصرة. وهذا المفهوم بالذات هو ما نصبو إلى توضيحه في بحثنا هذا، من خلال بيان أهم الأسس التي يقوم عليها، والآثار الوخيمة التي تنجم عنه.

3. أسس العدمية الأوروبية:

يرى نيتشه أن العدمية متغلغلة في تاريخ بعمق شديد وبقوة كبيرة جدا، ومن ثم فهي عدمية جد معقدة ومتعددة الأوجه وعامة جدا، بحيث إنها تشمل جميع المجالات، لذلك فإنها تقوم على أسس كثيرة ومتباينة، وبما أنه لا يمكننا التطرق إليها كلها، فإننا سنذكر أبرزها وهي ثلاثة أسس: الأساس الميتافيزيقي والأساس الديني والأساس الأخلاقي.

1.3. الأساس الميتافيزيقي:

الأساس الأول الذي تقوم عليه العدمية الأوروبية هو الأساس الميتافيزيقي، ويعني ذلك أن الميتافيزيقا التقليدية في كل صورها وعلى طول تاريخها كانت ميتافيزيقا عدمية، وهذا ما ينتج عنه الشكل الأول من العدمية، وهو "العدمية الميتافيزيقية" (رجب، 1986، صفحة 93) أو "العدمية الأنطولوجية".(Laborie, 2011, p. 75)

قلنا سابقا إن العدمية تعني في معناها الأساسي نفي الحياة، ويتجلى هذا النفي في العدمية الميتافيزيقية في نفي الميتافيزيقا للعالم الواقعي المحسوس، ويتم ذلك من خلال إيمان الفلاسفة بفكرة العالم الآخر، وهو العالم الميتافيزيقي المفارق للعالم المحسوس، وهي الفكرة الأساسية لكل ميتافيزيقا. "لا توجد ميتافيزيقا لا تدين الوجود، وتنتقص من قيمته باسم عالم مفارق للحس". (Daigle, 2000, p. 142)

ترجع فكرة العالم الميتافيزيقي كما هو معروف في تاريخ الفلسفة إلى فأفلاطون، فهو أول من قدم تصورا واضحا وكاملا عن العالم الآخر، وذلك من خلال ما سماه عالم المثل، وهو العالم المعقول والمثالي والكامل والأزلي، و هو يمثل العالم الحقيقي، في مقابل العالم الحسي الذي يكون عالما ظاهريا وناقصا، ومن ثم عالم الوهم والزيف.

غير أن نيتشه يعتبر أن العدمية الميتافيزيقية لا تنحصر في أفلاطون، بل يبين أن الميتافيزيقا الأفلاطونية متغلغلة بعمق في الفلسفة الأوروبية منذ القديم وإلى عصره هو، بحيث إنها ستكون أفلاطونية في صميمها. "نيتشه قد نظر إلى تاريخ الفلسفة الغربية باعتباره نزعة أفلاطونية".(يسري، 2007، صفحة 166) لذلك فعندما ينتقد نيتشه العدمية الميتافيزيقية، فهو ينتقد في الحقيقة الميتافيزيقا الأفلاطونية في كل امتداداتها التاريخية. "[في] تحليله للعدمية يفحص حقا ميتافيزيقا خاصة، وهي ميتافيزيقا المسيحية والأفلاطونية" (Daigle, 2000, p. 142)

2.3. الأساس الديني:

الأساس الثاني الذي تقوم عليه العدمية هو الأساس الديني، وهو يكمن في الدين، وقد ولد هذا الأساس شكلا خطيرا من العدمية هو "العدمية الدينية" (Ahamadi, 2009, p. 20)، أي تلك التي نجدها في الدين، وهذا ما يبرر الهجوم الشرس الذي شنه نيتشه على كل الديانات، وإن كان قد ركز أكثر على المسيحية، التي يرى أنها أكثر الديانات عدمية بسبب إنكارها التام للحياة. "المسيحية... يعتبر [نيتشه] هذا الدين كمصدر لنفي الحياة. وهو يجعلها أساس نقده في فلسفته". (Ahamadi, 2009, p. 31) ومقابل ذلك تؤمن المسيحية بالحياة الآخرة، التي تعتبرها الحياة الحقيقية، وفيها سيصل الإنسان إلى السعادة الكاملة وإلى الخلود الأبدي. لكن العالم الآخر بالمعنى الديني ما هو إلا وهم هو أيضا، هدفه تشويه الحياة والافتراء عليها. "وإذا ما توقفنا عند القيم المسيحية، سنجد أنها لم تثمر –في رأي نيتشه- سوى إنسان يبعث على الضجر، إنسان ضعيف عاجز مسلوب الإرادة، يمزقه الإحساس بالذنب الذي تنفثه فيه العقيدة المسيحية، ويقف في سبيل إثراء حياته دعوة زائفة إلى الزهد تصرخ بها أبواق القيم المسيحية التي تستهدف تشويه «إرادة الحياة» في داخله، وتحويل عينيه عن عالمه الأرضي المحسوس إلى عالم آخر وهمي". (يسري، 2007، صفحة 226)

من جهة أخرى يبين نيتشه العلاقة الخفية التي توجد بين الدين المسيحي والأفلاطونية، لأن أفلاطون لم يتوغل في الفلسفة الأوروبية فحسب، وإنما في الدين المسيحي أيضا، حتى أضحى أساس الفلسفة وأساس الدين في الغرب، وبعبارة أخرى أساس انحطاطهما. "في القدر الكبير للمسيحية، أفلاطون هو ذلك الإغراء ذو المعنى المزدوج الذي سمي «المثال idéal» الذي يتيح للطبائع النبيلة للعصر القديم أن تسيء فهم ذاتها، وهو الجسر الذي سيقود إلى الصليب. وكم توجد آثار من أفلاطون في فكرة «الكنيسة» في بناء الكنيسة، في نسقها، وفي ممارستها". (Nietzsche F. , sans année, pp. 110-111)

لم يكتف نيتشه ببيان أن كل الديانات –وبكل ما تحتويه من عقائد- هي ديانات عدمية، لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير عندما أعلن أن الأساس الأول الذي يقوم عليه كل دين، وهو فكرة الله عدمية أيضا، فكل من يؤمن بالله فإنما يؤمن حسبه بالعدم. "العدم أو الله، لأن التطلع إلى الاتحاد الصوفي مع الله ليس سوى تطلع البوذي إلى العدم، إلى النيرفانا وليس شيئا آخر". (Nietzsche F. , 1900, p. 42)

وعلى هذا فعدمية الله حسب نيتشه هي مصدر عدمية الدين، لأن الله نفسه معاد للحياة ومناف لها، "أي أن المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه الحياة وهو الغريزة ترفضه السلطة الدينية، وبالتالي يرى نيتشه أن فكرة الله تعبر عن العدم، لأنها تحط من قيمة الحياة." (المرهج، 2009، صفحة 187) لهذا ففكرة الله وهمية تماما عنده، وهي من اختراع الإنسان المنحط، مثلها مثل كل المعتقدات الدينية الأخرى. "يمكننا أن نؤكد أن هذا المثال الإلهي، هذا العدم المدعو الإله من قبل المسيحيين هو اختراع من الإنسان نفسه. وحسب مؤلفنا فإن الإنسان يسعى دوما إلى اختراع مبدأ قادر على يسمح له بأن يحتقر الإنسان، الحياة والأرض. فيخترع عالما آخر لكي يتمكن من الافتراء على الحياة الأرضية". (Serge, 2006, p. 47)

3.3. الأساس الأخلاقي:

آخر أساس للعدمية هو الأساس الأخلاقي، ويكمن في الأخلاق التقليدية، وقد أفرز شكلا خاصا من العدمية هو "العدمية الأخلاقية"، (Serge, 2006, p. 47)، أي العدمية التي تظهر في مجال الأخلاق، ولا يستثني نيتشه هنا أي نوع من أنواع الأخلاق التي ظهرت عبر التاريخ، بل يشملها جميعا في نقده، لذلك فإنه يثور على كل الأخلاق التقليدية، ويلاحظ أنها عدمية لأنها تنفي هي الأخرى من جهتها الحياة. "فالأخلاق التقليدية تعادي الحياة". (جعفر، 2010، صفحة 263) ونلاحظ ذلك في إنكارها للغرائز، للانفعالات، للرغبات وللجسد عموما...، ويظهر ذلك بجلاء كبير في المسيحية، التي تعادي وتحارب كل ما هو غرائزي في الإنسان، لهذا اعتبرها نيتشه دينا ضد الطبيعة، أي ضد الطبيعة الإنسانية الغرائزية. "المسيحية هي دين ضد الطبيعية، وهو الدين الذي ينقلب إلى تشويه للغرائز الإنسانية". (Ahamadi, 2009, p. 46)

يعتبر نيتشه العدمية الأخلاقية أخطر العدميات جميعا، لأنها تتويج للعدميتين السابقتين، فهي تترجم في حياة الناس الأفكار والمعتقدات والقيم العدمية للفلسفات والديانات، وذلك في شكل سلوكات وأفعال وتعاملات بين الناس. لهذا يجعلها المسئول الأكبر عن الانحطاط الذي لحق بأوروبا. "ذهب نيتشه إلى أن جذور العدمية تنبت من الأخلاق المسيحية". (جعفر، 2010، صفحة 364) لهذا فالمسيحية عدمية في عقائدها وفي أخلاقها على السواء. "فعلى هذا النحو ذهبت المسيحية من حيث هي عقيدة إلى العدم، بسبب أخلاقها الخاصة، وعلى هذا النحو أيضا أن تذهب المسيحية من حيث هي أخلاق إلى العدم". (نيتشه، 2010، صفحة 112) أي أن عدمية الديانة المسيحية ناتجة عن عدمية أخلاقها، وهذا ما يبرر النقد الشرس الذي وجهه نيتشه الأخلاق التقليدية بوجه عام، والأخلاق المسيحية بوجه خاص، فهي السبب الأول والرئيسي لانحطاط أوروبا وتدهورها، "وقد حمل نيتشه بنوع خاص على المسيحية، ورأى في

قيمها الخلقية أهم الأسباب التي تضعف الإنسان، وتحول دون قوته، وتمرده، وتفوقه، ودعا إلى هدم هذه القيم" (قمير، 1986، صفحة 31)

4. أنواع العدميات والعلاقة بينها:

يميز نيتشه في فلسفته بين نوعين كبيرين من العدمية هما: العدمية السلبية والعدمية الإيجابية. "يوجد عند نيتشه نوعان من العدمية... إيجابية وسلبية، صاعدة ومنحدرة". (Osigwe, 2011, p. 260)، وهو ما سنشرحه الآن

1.4. العدمية السلبية:

ويسميها أيضا "العدمية الناقصة" (Larivière, 2007, p. 94) أو غير المكتملة أو "الانفعالية" (Désiré, 2015, p. 94) –وتُترجم أيضا الارتكاسية- "كما أنه رأى في كل أشكال العدمية السابقة... عدمية غير منجزة، ناقصة". (الصالحي، 2015، صفحة 180) وهي العدمية التي سادت في أوروبا، وباختصار هي عدمية الحضارة الأوروبية، لاسيما تلك التي عاصرها نيتشه. ويؤكد أن هذه العدمية تكمن في ظاهرة انهيار جميع القيم، كما قال بذلك سابقوه. لكنه لا يكتف بوصف هذه الظاهرة، بل يحلل أسبابها العميقة وتداعياتها، فيبين أن القيم التي قامت عليها الحضارة الأوروبية كان يجب عليها أن تنهار وبالضرورة، وذلك لأنها قيم انحطاط. "وكما يتضح، فإنني أفهم الفساد بمعنى الانحطاط، وأؤكد أن كل القيم التي تلخص الآن تطلعات البشرية العليا، هي قيم انحطاط". (نيتشه، 2015، صفحة 29)

ويعتبر نيتشه أن الانحطاط هو بمثابة المرض الذي أصاب الحضارة الأوروبية برمتها، والذي يسميه أيضا الانحلال أو التدهور. لهذا فالعدمية عند نيتشه مرادفة للانحطاط أو الانحلال والتدهور. "المظهر الأول للعدمية يمكن نعته بالمظهر السلبي، من حيث هو علامة على مرض خطير ألم بالحضارة الغربية يلقبه نيتشه تارة "بالانحطاط" La décadence، وتارة أخرى "بالانحلال" La dégénérescence". (أندلسي، صفحة 3).

2.4. العدمية الإيجابية:

أما النوع الثاني من العدمية فهو العدمية الإيجابية أو الكاملة، "أعلن نيتشه على لسان زرادشت نبأ موت الإله، ومن هذا النبأ استقى نيتشه عدميته التي وُصفت بأنها عدمية كاملة وإيجابية". (الصالحي، 2015، صفحة 179)، والتي يطلق عليها نيتشه تسميات أخرى من بينها العدمية الكاملة والفاعلة والخلاقة. وهي العدمية التي ينسبها نيتشه لنفسه، أو بالأحرى هي العدمية التي جاء لكي يبشر بها. "الشكل... الأخير من العدمية يسميه نيتشه بالعدمية الفاعلة... وهو الذي يعتبره إيجابيا وفاعلا ولا يتردد الإعلان عن انتمائه إليه. فهو يقول عن نفسه بأنه بمثابة أكبر عدمي في أوروبا". (أندلسي، صفحة 3)

والسبب الذي دفع نيتشه لأن ينعت عدميته بالإيجابية، هو أنها لا تهدم القيم من أجل التهديم، بل هدفها هو التهديم من أجل البناء فيما بعد، أي تهديم القيم التقليدية، من أجل تأسيس قيم جديدة بدلا عنها. وهذا ما يفسر تسميته للعدمية الأولى بالناقصة، لأن عملها ناقص، فهو يكمن في هدم القيم التقليدية فحسب، فتقع بذلك في الفراغ المطلق، أما العدمية الثانية فهي كاملة لأنها تكمل الهدم بالبناء. "ولهذا السبب وُصفت عدميته بأنها عدمية إيجابية، لأنها تسعى لإحلال قيم جديدة محل القيم القديمة (لبناء معبد جديد لابد من تهديم معبد آخر قديم)، أي أن تضع محل الإله وعالم القيم القديم قيما أخرى، وهذه القيم تستند إلى مبدأ (الحياة)، أي أصبحت ميتافيزيقا نيتشه فلسفة حياة تزعم قهر العدمية الميتافيزيقية السائدة في عصره". (الصالحي، 2015، صفحة 180) .

5. العدمية بوصفها المحرك الأساسي للتاريخ الأوروبي:

قلنا سابقا إن العدمية ليست ظاهرة بسيطة في أوروبا، بل هي ظاهرة جد معقدة فيها، ونقول الآن العدمية ليست ظاهرة عرضية وطارئة على أوروبا، بالعكس إنها ظاهرة جد عميقة وجد متجذرة فيها، لأن "العدمية هي حركة تاريخية، وليست رأيا أو مذهبا لهذا الشخص أو ذاك. العدمية تحرك التاريخ في شكل سيرورة أساسية، والتي لا تُعرف إلا بالكاد في مصير شعوب الغرب". (Heidegger, 1980, p. 110)، وهذا بالضبط ما جعل هيدغر يعتبر في قراءته للعدمية النيتشوية أن العدمية من منظور نيتشه هي المحرك الأساسي لتاريخ أوروبا، وذلك منذ العصر القديم إلى العصر الحديث. "عندما نفكر في العدمية انطلاقا من ماهيتها، فإننا سنجد أنها وبالأحرى من ذلك، هي الحركة الأساسية لتاريخ الغرب. إنها تُبرز هذه الأهمية من حيث العمق، بحيث إن انتشارها لا يمكن أن يؤدي إلى شيء آخر سوى كوارث عالمية. العدمية هي في تاريخ العالم". (Heidegger, 1980, p. 110)

يرى نيتشه أن تاريخ أوروبا بأكمله هو في الحقيقة تاريخ العدمية، فيقول عنه: "تاريخ العدمية الأوروبية" (Nietzsche F. , 1900, p. 27) أي تاريخ ظهورها وتطورها وتجلياتها، لكن هذه العدمية بدأت تشتد في الحدة أكثر منذ بداية العصر الحديث، وهو ما يمكننا تسميته "العدمية الحديثة". (غرنييه، 2008، صفحة 45) التي تعتبر قمة التطور الذي وصلته العدمية، لكنها ليست المرحلة الأخيرة منها. بل مجرد هي مرحلة انتقالية فيها والتي ستفضي إلى عدمية أخرى أكمل منها، هي العدمية النيتشوية. "مرحلة العدمية انتقالية، قبل أن تصبح القوة كافية لقلب القيم، لتأليه عالم الصيرورة والمظهر وقبوله على أنه العالم الوحيد". (نيتشه، 2011، صفحة 222)

عرف العصر الحديث وعصر الأنوار بوجه خاص، تصاعد العدمية الأوروبية وذلك بسبب النقد اللاذع الذي وجهه الفلاسفة للقيم الأوروبية، سواء في الفلسفة أو في الدين أو في الأخلاق أو في الفن أو في

السياسة...، حيث بزغت حركة إلحادية –مع دولباخ، وفيورباخ وماركس...- كانت تتقوى يوما بعد يوم، وانتهت إلى إسقاط معظم القيم التقليدية. لذلك فالإنسان الحديث حسب نيتشه هو إنسان عدمي، وربما يعتبر شوبنهاور ذروة العدمية الحديثة، وهي العدمية التشاؤمية، ومع ذلك فإن هذه العدمية مازالت في منتصف الطريق، ولم تصل بعد إلى نهايته، صحيح أنها قامت بعمل جبار وهو التهديم، لكن عملها يظل ناقصا، ولذلك فعدميتها هي عدمية غير مكتملة.

ما ينقصنا هو عدمية جديدة وكاملة، بحيث لا تستهدف تهديم بعض القيم التقليدية فحسب، وإنما جميع القيم دون استثناء، كما أنها ستهدم **التقويم نفسه** (Evaluation) أي المعايير التي كانت تحدد القيم انطلاقا منها، مثل قيم الحقيقة والباطل، الخير والشر، العدل والظلم، الجميل والقبيح... وأكثر من ذلك ستهدم الأسس العميقة التي تقوم عليها كل القيم، بل ويجب عليها أن تصل إلى القضاء على روحها، أي الروح الميتافيزيقية– الدينية، أو الأفلاطونية- المسيحية التي أنتجتها، لأنها روح مرضية ومنحطة، وذلك حتى لا تعاود الظهور بصورة جديدة مرة أخرى في المستقبل، وهذه هي بالذات المهمة التي ينذر نيتشه نفسه لها. "لذلك كانت مهمة نيتشه تتمثل في أن يفضح عقم سائر القيم التقليدية، ومن ثم دعا إلى رفضها، وأعلن، من ناحية أخرى، تفسيرا جديدا للموجود في وجوده بوصفه تفسيرا يؤدي الأخذ به –مع رفض القيم التقليدية- إلى التغلب على العدمية وقهرها، إن الجزء الأول من هذا البرنامج الذي دعا إليه نيتشه يمكن أن يسمى "بالعدمية السلبية"، أما الجزء الثاني، فهو "العدمية الإيجابية". (رجب، 1986، صفحة 92) بحيث ستكون غاية نيتشه هي تجاوز هذه العدمية السلبية ومساوئها بعدمية أخرى إيجابية. "يصبح تجاوز العدمية عندئذ أمرا يتطلب جهدا واعيا في هذا الاتجاه. وسيشكل هذا التشريع الجديد عندئذ اللحظة الإيجابية في عمل نيتشه، التي تتعارض مع الجزء النقدي أو السلبي فيه". (Véniz, 2016, p. 95)

العدمية الناقصة والسلبية هي تلك التي عاصرها نيتشه في القرن التاسع عشر، وهو لا يقيمها تقييما سلبيا، بالعكس من ذلك، إنه يراها ظاهرة طبيعية تماما، وهذا بالنظر إلى الأسس الأولى التي قامت عليها الحضارة الأوروبية، والتي تجد أصولها الأولى عند سقراط وأفلاطون. "أستكشف في سقراط وفي أفلاطون علامات الانحطاط، ووسائل الانحلال اليوناني"، (Nietzsche F. , sans année, pp. 12-13) لذلك يعتبرهما نيتشه بداية الانحطاط في أوروبا.

وقد تطورت هذه العدمية منذ العصر القديم إلى العصر الحديث، ومهما كانت درجة تطورها الآن، إلا أنها تظل ناقصة، بحيث يعتبرها نيتشه مجرد مرحلة انتقالية، والتي يجب أن تعقبها العدمية الكاملة والإيجابية، أي العدمية النيتشوية، التي تعد علاجا لها. "رأينا في القسم السابق العدمية التي اكتشفها نيتشه في التقليد الميتافيزيقي- الديني. وهو يرغب في تقديم علاج لهذه الوضعية التي تؤدي إلى الاغتراب". (Daigle, 2000, p. 152)

ونلاحظ بذلك أن نيتشه لا ينوي أبدا التصدي للعدمية الأوروبية الحديثة، ولا إيقاف سيرورتها، بالعكس إنه يسعى إلى مساعدتها على التطور أكثر فأكثر حتى تصل إلى ذروتها النهائية، لأن ذلك سيكون ضروريا للمرور إلى العدمية الكاملة والإيجابية. لكن كيف سيحصل ذلك؟ أي كيف سينتقل نيتشه من العدمية الناقصة إلى العدمية الكاملة؟.

6. موت الإله كمقدمة ضرورية للعدمية الإيجابية:

إن الانتقال من العدمية الناقصة إلى العدمية الكاملة يتم حسب نيتشه بحادثة مهمة وحاسمة جدا، هي حادثة موت الإله، التي تمثل ذروة العدمية الناقصة، فموت الإله يعني التهديم الكامل لكل القيم التقليدية، لذلك فهو آخر محطة في العدمية الناقصة. "عند نيتشه الطريق نحو إعادة البناء، نحو عدمية كاملة... يمر عبر إعلان موت الإله". (Daigle, 2000, p. 151)

ويظهر لنا أن نيتشه كان جد ذكي في اختياره لفكرة موت الإله كتجسيد لاكتمال العدمية الناقصة ومن ثم نهايتها، لأن فكرة الإله هي أساس كل القيم التي قامت عليها الحضارة الأوروبية منذ ألفي سنة. "وهذا ما حدا به إلى إعلانه عن موت الإله، وإلغاء كل القيم والمعايير القائمة على الإيمان به، منكرا لكل حقيقة خارجة عن الإنسان الذي عده الحقيقة الواحدة والمقياس الوحيد للأشياء، وهو الذي يضفي عليها القيمة والمعنى". (الصالحي، 2015، صفحة 181)

وهذا ما يوضح لنا أن نيتشه لا يحارب الإله في حد ذاته، بقدر ما يحارب مجموع القيم التي تستند عليه. "ويجب أن نؤكد دائما أن نيتشه يحارب الإله المسيحي باعتباره أساس لحشد من القيم الخلقية التي تنتقص من قيمة الحياة الأرضية وتعكر صفو بهجتها وتقف عائقا في سبيل ثرائها". (يسري، 2007، صفحة 162) ومن ثم فإن موت الإله يعني سقوط الحضارة الأوروبية مع كل القيم التي ترتكز عليها. "موت الله هو انقضاء عشرين قرنا من الحضارة الأوروبية. وبانقضاء هذه الحضارة، يفقد الإنسان ثوابته ومستنداته ومراجعه. وبعد أن سقط عالم السماء والمثل الفائق للطبيعة، عاد أغلب الناس يسيرون سير تيه في شعاب العدمية والخواء". (عون، 2003، صفحة 38)

وموت الإله ليس النهاية عند نيتشه، بل هو بداية عصر جديد، والمقدمة الضرورية لتأسيس الحضارة الجديدة والقيم الجديدة، والتي ستبدأ بولادة الإنسان الأعلى، الذي يستحيل عليه الظهور إلا بعد موت الإله، فهو الإنسان الذي تجرأ على قتل الإله، وأكثر من ذلك هو الإنسان الذي كانت لديه الشجاعة الكافية لكي يؤله نفسه بدلا عنه، فهو الإله الجديد، لذلك فإن دوره الأساسي سيكمن في الخلق، أعني خلق القيم الجديدة وفي كل المجالات دون استثناء، والمعيار الوحيد الذي يستند إليه في تقويمه الجديد هو إرادة القوة. "الإنسان الأعلى هو خالق، إنه يخلق بعد أن يكسر وينسى القيم القديمة. إنه يخلق قيما

أخرى جديدة، أقوى وأحسن بالمقارنة مع القديمة والتي تدعو إلى القوة وإلى القدرة الفردية" (Serge, 2006, p. 80)، فهو يريد أن يصبح أقوى فأقوى ن من خلال تعلقه الشديد بالحياة.

7. خطر أزمة العدمية على الإنسان المعاصر:

بعد أن بيّنا أسس العدمية وأنواعها، نصل الآن إلى نتائجها الوخيمة على الإنسان المعاصر، وأخطر هذه النتائج أنها توقعه في أزمة حادة هي **أزمة الإنسان** نفسه.

صحيح أن التحليل الأولي لنيتشه قد بيّن أن أزمة العدمية التي تعيشها أوروبا في القرن التاسع عشر هي أزمة قيم، لأنها تكمن في القيم المرضية والمنحطة التي تقوم عليها الحضارة الأوروبية بأسرها، لكنه في التحليل النهائي سيخلص إلى نتيجة جديدة في غاية الأهمية، وهي أن أزمة العدمية في حقيقتها وعمقها هي **أزمة الإنسان الأوروبي المعاصر**. ذلك أن العدمية كما شرحنا ذلك سابقا هي انهيار جميع القيم التي آمن بها الإنسان منذ أقدم العصور، حيث سيفقد الإنسان على المستوى النظري معتقداته الدينية وقيمه في الحقيقة وفي الجمال...، "وهكذا دمر الإنسان الأخير كل شيء... إذن هو أنكر المعتقدات القديمة، أنكر الإله والعالم الآخر لكنه يرى أن هذا العالم خال من القيمة والمعنى". (الصالحي، 2015، صفحة 213) وبهذا سيفقد العالم الذي يعيش فيه كامل معناه، لأن معنى العالم كان يُستمد من القيم التقليدية.

وعلى المستوى العملي سيفقد الإنسان قيم الخير والفضيلة والعدالة... "بالنسبة للإنسان الأخير.... فإنه يتخلى عن الحكمة التي هي فضيلة المعرفة ويتخلى عن الشجاعة التي هي فضيلة النشاط ويتخلى عن الفضائل ضد القوى الطبيعة، وعن الاعتدال الذي هو فضيلة الشعور وعن العدالة التي يخلط بينها وبين المساواة، فلم يعد لديه أي واجب أو التزام". (الصالحي، 2015، صفحة 214) فيصبح كل شيء مستباح عنده في هذه الحياة. بحيث "يمكن أن تُلخص هذه النتيجة من خلال الحكم اليائس لدوتوسفكي: «إذا لم يكن الله موجودا، فكل شيء مباح»". (قمير، 1986، صفحة 32)

وواضح مما سبق أن أزمة العدمية ستتحول لا محالة إلى أزمة الإنسان، وهي أزمة جد حادة وجد خطيرة أيضا، لأنه عندما يخسر الإنسان كل قيمه، فإنه سيخسر بذلك معنى وجوده، حيث سيصبح الوجود الإنساني بلا معنى وبلا معقولية وبلا غاية أو هدف. "بالنسبة إلى الإنسان الحديث الإله غير موجود والخلود غير موجود. وما هي النتيجة التي ستترتب ذلك؟ يعني ذلك أن الحياة في ذاتها ستصبح عبثا. يعني ذلك أنه ليس لحياتنا لا معنى، ولا قيمة، ولا هدف مطلق". (Craig, 2021, p. 2)

وهذا ما سيؤدي بالضرورة إلى سقوط الإنسان في العبثية الكاملة، التي يشعر معها الإنسان بالفراغ والضياع. "اعتقد الإنسان الحديث أنه بتخلصه من الإله، سيتحرر من كل ما كان يكبله ويكرهه، بالعكس اكتشف أنه بقتله للإله، فإنه قد قتل نفسه أيضا. لأنه إذا لم يكن الإله، فإن حياة الإنسان ستصبح عبثا". (Craig, 2021, p. 2) لكن هل سيقبل نيتشه بذلك؟

طبعا لا، فبالرغم من أن نيتشه يرى أن الإنسان المعاصر سيعيش هذه العبثية بالضرورة، نتيجة العدمية السلبية والهدامة التي يكابدها، لكنه يتصور أن دوره يكمن وعلى وجه التحديد في مساعدته على الخروج منها. وذلك بالبحث عن معنى جديد للوجود الإنساني غير المعنى القديم. "فلقد مات الإله في قلوب الناس، قتله العلم والعقلانية، ولكن بدون الإله يصبح الكون بلا معنى، ويختفي كل شيء كان مسئولا عنه، وتختفي الأحكام الخلقية بأسرها، كما تختفي كل التصورات الخاصة بالصواب والخطأ، والخير والشر، إن أوروبا الحديثة تسقط في فراغ العدم، وهذا العالم الخلو من المعنى لا يمكن احتماله؛ لذا فإن مهمة نيتشه الأساسية هي محاولة العثور على معنى الوجود الإنساني الخالص". (جعفر، 2010، صفحة 360)

يرى نيتشه أن العبثية الحديثة هي النتيجة الحتمية للعدمية الأوروبية، لهذا لا يمكن تفاديها بحال من الأحوال، بل يجب المساهمة في بروزها وتطورها، لأن هذه العبثية هي التي ستكشف مدى خطورة العدمية الأوروبية أي مدى سلبيتها، فتؤدي إلى موت الإنسان التقليدي أو الأخير، لكي يولد على أنقاضه إنسان جديد، وهو تجاوز له ولكل مظاهر انحطاطه، إنه الإنسان الأعلى، الذي سيبني الحضارة الجديدة، ومعها القيم الجديدة، فيؤسس بذلك معنى جديدا للعالم وللإنسان أيضا، انطلاقا من حريته الكاملة وبالارتكاز على إرادة القوة وحدها، وبعد تنصيب نفسه إلها جديدا مكان الإله الميت. "ولكن بغياب الآلهة يظل الإنسان وحده في الوجود. فينبغي له أن يحل محل الآلهة، الذين كان البشر يلجأ إليهم في بحثهم عن معنى وجودهم على الأرض. أما وقد عاد الإنسان وحيدا، فيجب عليه أن يبتدع بذاته لذاته معنى الحياة التي يحيا فيها ويملك أمرها ملكا كاملا". (عون، 2003، صفحة 38) ويعتقد نيتشه أنه على هذا النحو سيتم تجاوز كل مخاطر وسليبات أزمة العدمية الأوروبية للقرن التاسع عشر، خاصة أزمة الإنسان المعاصر.

8. الخاتمة:

نستنتج في آخر هذا البحث أن أزمة العدمية كانت في نظر نيتشه أخطر وأعنف أزمة عاشتها أوروبا، وهي لم تكن وليدة القرن التاسع عشر، ولا حتى العصر الحديث ككل، وإنما هي وليدة الحضارة الأوروبية بأسرها، ومنذ بداياتها الأولى مع اليونان. وهي في المقام الأول أزمة قيمية، أي أزمة قيم، فالقيم التي بُنيت عليها الحضارة الأوروبية هي قيم انحطاط، لأنها تقوم على أسس ميتافيزيقية ودينية وأخلاقية منحلة ومرضية.

نشأت العدمية لأول مرة مع سقراط وأفلاطون، فمعهما بدأ تمجيد العقل واحتقار الحياة، من خلال اختراع العالم الميتافيزيقي المفارق، الذي نتج عنه نفي عالمنا الواقعي المحسوس، وقد تطورت هذه العدمية بالتدريج خلال العصر الوسيط والعصر الحديث، وتغذت بقوة من الدين المسيحي ومن الأخلاق المسيحية، حتى بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر. "العدمية ليست حادثة عابرة محصورة في الزمن، إنها

التاريخ. يؤكد نيتشه أن هذه الحركة التي بدأها أفلاطون وسقراط، لم يتم الاعتراض عليها أو طرحها للمناقشة، بالعكس لقد تعززت بالمسيحية... ليس للحداثة ما تفعله سوى مواصلتها لهذه الحركة. وهي التي تدعي أنها تجاوز للأفلاطونية، ليست في الحقيقة سوى تكريس للاحتقار الأفلاطوني والمسيحي للحياة". (Messaoudi, 2006, p. 124)

وعلى هذا فقد وصلت العدمية في عصر نيتشه إلى صورتها التشاؤمية والسلبية المعروفة، وبالرغم من إدراكه لكل مخاطر هذه العدمية، إلا أنه لم يرغب أبدا في إيقافها، لأنه اعتبرها ضرورية من الناحية التاريخية، ويجب دفعها إلى آخر مرحلة لها، من أجل تجاوزها بعد ذلك، وهو ما فعله نيتشه من خلال بناء عدمية جديدة، بحيث تكون إيجابية، ومن ثم قادرة على إخراجنا من العدمية السلبية السائدة، فتُنقد بذلك الإنسان من مخاطر الفراغ والعبثية واللامعنى التي تتهدده. إلا أننا نظن أن نيتشه لم ينجح في مسعاه هذا، وقد شعر هو نفسه بذلك وكان جد قلق منه، وقد ظهر ذلك في تردد في إعلانه لموت الإله. "والأمر الهام هو أن محاولته غير الناجحة في العثور على بدائل للعلو تعبر بوضوح عن رغبته في الإيمان، إلا أن العلو العدمي لا يحقق له السلام مع الوجود، وإنما تعبر هذه المحاولة عن قلق يعجز عن فهم نفسه، وهو قلق متصاعد لا يألو جهدا في البحث عن الإله". (جعفر، 2010، صفحة 374)

وسبب إخفاق نيتشه في نظرنا، هو أنه بالرغم من أنه ينعت عدميته الجديدة بأنها عدمية إيجابية، إلا أنها تبقى عدمية في الأخير. "على هذا، أصبحت ميتافيزيقا نيتشه فلسفة حياة، تزعم قهر العدمية الميتافيزيقية التي سادت عصره، بواسطة عدمية من نوع أعلى –عدمية إيجابية- لكنها تظل عدمية". (رجب، 1986، صفحة 93) ومن ثم فهي تتضمن في نظرنا كل عيوب العدمية السلبية. ويظهر ذلك في أنها هدمت كل المركزيات، أي كل الأسس القديمة، لذلك فلم يعد لها أي أساس تنطلق منه للبناء، "موت الإله هو أيضا نهاية النظام الأخلاقي للماضي، الذي منح معنى لوجود الفرد. كيف نفكر في إعادة وضع تأسيس جديد في العالم الذي يكون من المستحيل أن نجد فيه الأساس الذي نقيم عليه كل حقيقة؟". (Véniz, 2016, p. 97) ويظهر بذلك أن موت الإله يهدم كل أساس، وليس هذا فحسب، بل إن هذا "الموت يهدم كل إمكانية للأساس". (Véniz, 2016, p. 90) بحيث سيكون العثور على أي أساس جديد أمرا مستحيلا فعلا.

ومهما قال نيتشه عن الإنسان الأعلى فهو ليس إنسانا مطلقا، بل يظل إنسانا نسبيا ومحدودا، ومن ثم لا يمكنه بناء جميع القيم، ومن ثم معنى العالم ومعنى الوجود الإنساني بمفرده، ودون الرجوع إلى أي سند خارجي. والمعنى العميق لكل ذلك أن الفراغ الذي تركه موت الإله في الحضارة الأوروبية المعاصرة لا يمكن لأحد ملأه من بعده. "مثلما كتب ذلك نيتشه: «إذا لم نجعل موت الإله تنازلا عظيما عن ذواتنا وانتصارا دائما عليها، فيجب علينا أن نتحمل الخسارة. هذه الخسارة التي يجب علينا تحملها ستبرز بوضوح في الفراغ الذي سيتركه الإله، وهو الفراغ الذي لا يمكن ملأه من خلال الموجود الإنساني، وسيحكم عليه بالعدمية التي يجب عليه تحملها»". (Chaput, 2015, p. 31)

لهذا فإننا نظن أن الإنسان المعاصر بعد نيتشه سيظل يعيش في أزمة العدمية التي ستشتد أكثر فأكثر، فيبقى الإنسان بذلك غارقا في العبثية واللامعنى، ومن ثم اليأس والقلق. ونعتقد أن الإنسان لن يقدر على الخروج من هذه العدمية القاتلة إلا بالرجوع إلى الله وإلى الإيمان. "وأكثر من ذلك، مادام الموجود الإنساني عاجزا عن تحمل مثل هذا الفراغ، فإنه سيبحث بيأس عن أصنام جديدة أو قديمة. لهذا فإن «رجوع الديني» يمكن أن يجد بداية التفسير في السياق الدنيوي لموت الإله بوصفه طبا مختبرا ضد خطر العدمية". (Chaput, 2015, p. 31) وهذا بالضبط ما نراه في أوروبا، فبعد سقوطها في الإلحاد التام في السنوات الماضية، ها هي اليوم تتراجع ولو جزئيا ونسبيا عنه، وتعود إلى الدين، لأن الدين في نظرنا هو العلاج الوحيد الناجع أمام أزمة العدمية، لأنها أزمة إنسانية روحية عميقة جدا.

9. قائمة المصادر والمراجع:

- قائمة المصادر باللغة العربية:

1- فريدريك نيتشه (2011)، **إرادة القوة، محاولة لقلب كل القيم**. ترجمة وتقديم محمد الناجي، المغرب، إفريقيا الشرق.

2- فريدريش نيتشه (2010)، **في جنيالوجيا الأخلاق**، ترجمة فتحي المسكيني، مراجعة محمد محجوب، تونس دار سيناترا.

3- فريدريك نيتشه (2015)، **عدو المسيح**، ترجمة جورج ميخائيل ديب، قطر، دار الشرق للطباعة والنشر.

- قائمة المصادر باللغة الأجنبية:

1- Frédéric Nietzsche (1900), *La Généalogie de la Morale,* Traduit par Henri Albert, Paris, Société DV. MERCEVRE De France, 1897, 3eme Edition .

2- Frédéric Nietzsche (sana année), *Les Crépuscules des Idoles*. Traduction par Henri Albert, Version électronique.

- قائمة المراجع باللغة العربية:

1- عبد الهادي المرهج (2009)، **الميتافيزيقا في فلسفة نيتشه**، لبنان، دار الهادي، ط1.

2- جان غرنييه (2008)، **نيتشه**، ترجمة على بوم لحم، لبنان، بيروت، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1.

3- حسن حنفي (1990)، **في الفكر الغربي المعاصر**، الإسكندرية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

4- رجب محمود (1986)، **الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين**، القاهرة، دار المعارف، ط2.

5- هجران عبد الإله الصالحي (2015)، **الإنسان والاغتراب في فلسفة نيتشه**، سوريا، دمشق، دار الفرقد للطباعة والنشر، الطبعة1.

6- صفاء عبد السلام علي جعفر (2010)، **محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

7- يوحنا قمير (1986)، **نيتشه نبي المتفوق**، بيروت، دار المشرق، 1986.

8- باسيل مشير عون (2003)، **بين الفلسفة والدين. نظرات على الفكر الإلحادي الحديث**، لبنان، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة1.

9- يسري إبراهيم (2007)، **فلسفة الأخلاق، فريديريك نيتشه**، لبنان، دار التنوير للطباعة والنشر.

- قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

1- Martin Heidegger (1980), *Chemins qui ne mènent nulle part*. Traduit de l'allemand par Wolfgang Brokmeier, Paris, Gallimard, Nouvelle édition.

- قائمة الرسائل الجامعية:

1- Chaput Emmanuel (2015), *Ludwig Feuerbach, Penseur de la mort de Dieu*, Mémoire de maitrise en philosophie, Université de Montréal, Canada.

2- Christine Daigl (2000), *Le nihilisme est- il un humanisme* ? *Etude sur Nietzsche et Sartre*, Thèse De Doctorat en philosophie, Université de Montréal.

3- Any Hobido Desiré (2015), *Friedrich Nietzsche et la nature : Prolégomènes à l'écologie de la santé*, Thèse de Doctorat, Université Alassane Outtara.

4- Pascal Dorey Vézinz (2000), *La question de la fondation et du législateur, le cas de Nietzsche*, Thèse de Doctorat Université de Montréal, Canada.

5- Karine Laborie (2011), *Métaphysique et politique à l'épreuve du nihilisme*, Thèse de Doctorat en Philosophie, Université de Grenoble.

6- Loistoi Mahamoud Ahamadi (2009), *Les Significations du meurtre de Dieu dans la Philosophie de Nietzsche* , Projet de Thèse de Doctorat, Université de Tuléar, Madagascar.

7- Hichem Messaoudi (2006), *Heidegger et Nietzsche, La présence de Nietzsche dans la philosophie de Heidegger*, Thèse de Doctorat en Philosophie, Faculté de Philosophie, Université Laval, Québec.

8- Uchenna Osigwe (2011), *L'unité de la Kultur et de la politique chez Nietzsche*, Thèse de Doctorat en Philosophie, Faculté de Philosophie, Université Laval, Québec.

9- Ratsima Niaainatiana Serge (2006), *Le Surhomme de Nietzsche*. Mémoire de Maitrise en Philosophie, Université de Toamasina, Madagascar.

- قائمة المقالات الإلكترونية:

- قائمة المقالات الإلكترونية باللغة العربية:

محمد أندلسي. **العدمية كانحطاط والعدمية كأفق**. مقال صادر في المجلة الإلكترونية أنفاس نت، من أجل الثقافة والإنسان. تم تحميل المقال يوم 2021/08/01. (https://www.anfassa.org)

- قائمة المقالات الإلكترونية باللغة الأجنبية:

William Lane Craig. *L'absurdité de la vie sans Dieu*. Article électronique télécharger le 26/06/2021. (https://www.reasonablefaith.org)